شعر المعتمد بن عباد

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

وبرغم شهرة شعراء الأندلس بوصف الطبيعة ، وغرام المعتمد بها لم نجد له كثيراً من الشعر فيها ، اللهم إلا حديثاً عرضيا عن البدر الذى كان يساهره ، وهو هانىء بشرب الراح ، كما تحدث عن شمة سهرت معه كذلك وهو يشرب الخمر أيضاً ، وقد رأى فى نورها ولهبها ممثلا لجمال ساقيه ونار غرامه إذ يقول :

ساهرتها والكاس يسبى بها من ريقه أشهى من الكاس
ضياؤها لا شك من وجهه وحرها من حر أنفاسى

ويقف ابن عباد فى وصفه للخمر عند حد ما تراه العين ، فير متجاوز ذلك إلى الحديث عن وصف أثرها فى نفسه كما نرى ذلك فى وقوله :

لو زرتنـــا لرأيت ما لم تعهد
ذوب اللجين خليط ذوب العسجد

ولعل المعتمد قد شغله الجمال الناطق ممثلا فى المرأة عن الجمال الصامت ممثلا فى الطبيعة .

ووصف الجمن عند ما طلب إليه أبوه وصفه ، وكان قوى الخيال عند ما ربط بين منظر الجمن وقد أصبح يحكى السماء بما رسم عليه من نجوم وبين بُعد أن تناله طوال الرماح إذ قال :

بجمن حكى صافوه السماء لتقصر عنه طوال الرماح

* * *

وله قصيدتان تهكميتان بلغ فيهما مبلغاً كبيراً من الإتقان والإجادة ، أما أولاهما فتلك التى رد بها على ابن عمار عند ما طمع فى أن يستأثر ببلنسية ، فقال ابن عمار فى ذلك شعراً يشيد فيه بمجده وبمجد أسرته ، ولم يكن ابن عمار من أسرة رفيعة الذار ، بل كان خامل البيت ، كما يقول مؤرخوه ، فما هو إلا أن قال :

كيف التفت بالحديمة من يدى رجـــل الحقيقة من بنى عمار

حتى أنشد المعتمد قصيدة يعرض فيها بابن عمار وآبائه ، ويذكر نشأتهم ومنبتهم ، ويسخر من فخره بهم فى أسلوب تهكمى لاذع بدأه بقوله بكمل قصيدة ابن عمار :

الأكثرين مسودا ومملكا ومتوجا فى سالف الأعصار

والثانية بعث بها إلى ابنه الراضى ، عند ما أرسل إليه يأمره بالخروج لمحاربة عـدو هاجم « لورقة » فأظهر الراضى تمارضاً وانصرف إلى القراءة ، فكتب إليه قصيدة تهكمية بدأها بقوله :

الملك فى طى الدفاتر فتخل عن قود العساكر

* * *

وللمعتمد فخر بنفسه وبأسرته فى ثنايا قصائد غزله ورسائله إلى أبيه ، ولم ينشىء قصيدة للفخر قصداً إلا تلك التى أوحى إليه بها فتحه قرطبة ، وإلا ثانية يفتخر فيها بالجود ، وإلا ثالثة أنشأها فى الأسر وسوف نعرض لها .

* * *

ولم يَرِث غير بنيه الذين قتلوا وهم يدافعون عن مدنهم ،

وما يبرح لامرتين خالماً على روحه شخص حبيبته ، ليستدل فى هذا الجو الناطق على الإيمان بالله ، مراجعاً من طرف خفى الفلاسفة الأبيقوريين والماديين الذين ينفون خلود الروح .

وكأنى بالشاعر — فى إصاخته لصوت الغريزة ورفضه البراهين المنطقية — يريد أن يطوى فى غضون شعره مذهبه فى تمثل الإيمان وتعقل معانيه — فليدع تلك المناقشات البيزنطية العقيمة ، وتلك البراهين الجدلية السقيمة ، وليتطق فى نفس الإنسان لسان حاله إذا ما تأمل معيد الطبيعة القدسى ، وسمع ألحان الأرض والسماء حتى استنارت بصيرته بما رأى بصره ، فتجلت له حقيقة الإيمان .

ألا وإن هذه الحقيقة السامية لتسبيحة خالدة طالما تغنى بها روح الشاعر ، فأيقظه من سباته ، وبعثه من مرقده .

« حينئذ توقظ عينىَّ بسكرتك الوديعـــة
وأنت ترجع فى السماء والأرض طرفك الحيران
قائلاً : « أيها الإله الباطن ! معيدك الطبيعة .
فإذا تأملها البصر شهدتك البصيرة فى كل مكان »

(البقية فى العدد القادم) صبحى ابراهيم الصالح

وهو حين يرثي يندفع حيناً وراء حزنه ، حتى ليرى من الغدر ألا يفيض جفنه عليهم ، ويرى نفسه أحق بالبكاء من تلك الغمرية التي أثارها فقد إلفها :

فالى لا أبكي ؟! أم القلب صخرة
وكم صخرة في الأرض يجري بها نهر

بكت واحداً لم يشجها غير فقده وأبكي لآلاف عديدهم كثر
قدرت إذاً إن ضن جفني بقطره وإن لؤمت نفسي فصاحبها الصبر

وحيناً تتقلب العاطفة الدينية لديه ، فيخفف ذلك من وقع المصائب عليه :

خفف من فؤادي أن تكلكما متقل لي يوم الحشر ميزانا

أما عند ما كان في الأسر فإنه وجد في رثاء بنيه وبكائهم متنفساً من آلامه ، ووجد في الجزع عليهم تعبيراً عن يأسه وتبديد أحلامه ، ولا ريب أن حاله في الأسر هو الذي أوحى إليه بهذا البيت الباكي :

يقولون صبراً ، لاسبيل إلى الصبر
سأبكي ، وأبكي ما تطاول من عمري

وهو في هذه القصيدة يرى الطبيعة تشاركه في الحزن ، فالبدر والنجوم الزهر في مأتم كل ليلة ، والغمام يبكي مشاركة له في مصابه ، ولا غرو فذو المنظار الأسود يرى الدنيا كلها سوداء ، والمعتمد يناجي والديه ، محدثاً لهما عما خلفه بعدهما في القلوب ، من جروح وندوب ، وما استحال إليه مجده بعدهما من تبدد وانهيار ، حتى إنهما لو عادا لآثرا الموت على أن يريا مقيماً مأسورا .

فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى إذا أنتما أبصرتماني في الأسر

***

أما شعره في الأسر فكان سلواه ، يشكو له بثه ، ويندب إليه حظه ، ويحدثه بآلامه ، ويبكي به مصيره ومصير ملكه .

وقد دافع المعتمد عن عرشه ، وخرج بسيفه يذود عن حماه ، ولم يستمع إلى رأي ناصحيه الذين أشاروا عليه بأن يتخذ خضوعه للمنتصرين سياسة ينتهجها ، حتى يقوموه على العرش ، فأبى ، ورأى استلاب عرشه أفضل من النزول عن شرفه :

قالوا : الخضوع سياسة فليد منك لهم خضوع
والله من علم الخضو ع على في السم النقيع

إن يسلب القوم العدا ملكي وتسلمي الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الشجوع
لم أستلب شرف الطبا ع ، أيسلب الشرف الرفيع

واستقبل المعتمد أسره لا بالثورة والتهديد والوعيد ، ولكن بالبكاء والنحيب ، فلم تر في شعره حديثاً عن أنصار سيثورون ، ولا عن شعب سينتقم ، بل رأينا استسلاماً لأسره ، وبكاء على ماضيه . خرج به يوسف بن تاشفين إلى العدوة بعد أن خلعه ، فوصل إلى موضع منها ، وأهل البلد خارجون للاستسقاء فقال :

خرجوا ليستسقوا ، فقلت لهم دمعي ينوب لكم عن الأنواء
قالوا : حقيق في دموعك مقنع لكنها ممزوجة بدماء

ولم نره طول مدة مقامه في الأسر متوعداً ولا ثائراً ، بل يائساً مستسلماً ، ولم يمر به أمل العودة إلى سابق مجده إلا مروراً عابراً كما يمر به في حلم إذ يقول :

فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة أماني وخلق روضة وغدير
تراه مصيراً أم يسيرا مناله ألا كل ما شاء الإله يسير

ولم نحس بروح الثورة في شعر المعتمد وهو أسير إلا عند ما بلغه نبأ ثورة ابنه عبد الجبار ، فهنا يذكر المعتمد السيف الذي طال رقاده في جفنه ، والرمح الذي عطش إلى شرب الدماء ، والجواد وقد حيل بينه وبين ارتقاب غرة في العدو فينادي قائلاً :

ألا شرف يرحم الشرف محمـا به من ثمالات الوثين
ألا كرم ينعش السمهري ، ويشفيه من كل داء دفين
ألا حنة لابن محنية شديد الحنين ضعيف الأنين

بل إن ذكرى مجده ومجد آبائه الغابر في القصيدة الفخرية التي أنشأها في الأسر لم تكن لتثير فيه الطموح إلى إعادة هذا المجد ، بل يسلي نفسه فيها بقوله .

وإذا ما اجتمع الدين لنا فخير ما من الدنيا افترق

فالسائد في شعره روح الاستسلام لجور الدهر وظلم الأيام : يوصي نفسه بالصبر ، ويدعوها إلى تحمل الكرب ، ويوطنها على الكره ، عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيقول :

اقنع بحظك في دنياك ما كانا وعز نفسك إن فارقت أوطانا
في الله من كل مفقود مضى عوض
فاشعر القلب سلواناً وإيمانا

أما سمعت بسلطان شبيهك قد ... بزّته سود خطوب الدهر سلطانا
وطن على الكره ، وارقب إثره فرجا
واستغنم الله تغنم منه غفرانا

كان هذا الأسر القاسي وما عومل به من إذلال فيه ، والموازنة بين حاضره وماضيه ، مدعاة لإثارة شجونه ، وإدماء عيونه ، وها هو ذا يصف لنا عيداً حزيناً قد أقبل عليه في منفاه وقد دخلت عليه بناته ، يلبسن ثياباً أخلاقاً وفي أيديهن المغزل يغزلن به للناس حتى لمن كان لهن بالأمس خادما ، فثارت في خاطره أطياف السعادة الماضية ، فتمزق قلبه وقال :

فيا مضى كنت بالأعياد مسرورا
فساءك العيد في أغمات[1] مأسورا
ترى بناتك في أغمات من عُدُم ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا ... فردك الدهر منهياً ومأمورا

وكثيراً ما كان يتذكر قصوره بالأندلس فيحن إليها ، ويحس كأنها تبكي أيامه الزاهرة ، ولياليه المتلألئة ، ويشعر على البعد بما ارتدته من الذل والوحشة بعده .

ومما ضاعف أساه ، هذا القيد الذي غلت به قدماه ، وشعره ملء بالحسرة التي تمزق قلبه لهذا القيد الثقيل الذي يراه يتلوى كالحية الرقطاء ، وذا أيد وبطش كالأسد ، ومن أروع شعره في ذلك حديثه إلى القيد ، وقد دخل عليه ابنه أبو هاشم فارتاع له :

قيدي ، أما تعلمني مسلما ... أبيت أن تشفق أو ترحما
دعي شراب لك ، واللحم قد ... أكلته لا تهشم الأعظما
يبصرني فيك أبو هاشم ... فينثني القلب وقد هشما
ارحم طفيلا طائشاً لبه ... لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله ... جرعتهن السم والسلقما

ولم يكن هناك بصيص من أمل في النجاة والحرية ينفذ إلى قلبه ، وكان الهم يحطمه والأسى يرهقه ، واليأس يعصر قلبه ، فكان يشعر بدنو أجله ، بل كان يتخيل هذا اليوم قد حل ، ولعله كان يراه آلامه وأحزانه ، فرثى نفسه بأبيات أوصى أن تكتب على قبره ، لم يشر فيها لغير ماضيه ، وكأنه يريد بذلك أن يمحو من ذاكرة التاريخ ما بلاه من الأسر والشقاء حيث يقول :

قبر الغريب، سقاك الرائح الغادي ... حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالطاعن الضارب الرامي إذا انتظروا
بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي
نعم هو الحق واقانى به قدر ... من السماء ، فواقاني ليعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ... أن الجبال تهادى فوق أعواد
فلا تزل صلوات الله نازلة ... على دفينك لا تحصى بتعداد

وقبل أن أختم هذا الفصل أشير إلى صلة المعتمد بالشعراء في منفاه ، فقد استقبله في طنجة الحصري الشاعر ، وأقبل عليه يلح في طلب العطاء ورفع إليه شعراً ، فبعث إليه المعتمد بأكثر ما كان معه من مال قليل ، واعتذر إليه بقطعة من الشعر ، فأخذ الحصري ما أرسل إليه ، ومضى مستقلا للعطاء ، مهملا للمعتمد ؛ ولما سمع الشعراء بعطاء المعتمد أقبلوا عليه يسألونه ، فعجب من أمرهم وقال :

سألوا السير من الأسير وإنه ... بسؤالهم لأحق منهم فأعجب
لولا الحياء وعزة نفسية ... على الحشا لحكاهم في الطلب

وفي له ثلاثة من شعرائه هم أبو بكر الداني ، وابن حديس ، وابن عبد الصمد ، وأبى كرم المعتمد إلا أن يرسل إلى أولهم عند ما زار أغمات بالقليل الذي كان يملكه ، فأبى الداني أن يأخذ على وفائه أجراً ، وأما الثاني فقد أقبل يريد زيارته فصرفه بعض الخدم ، فأرسل المعتمد إليه قصيدة يعتذر فيها . ولعله كان يرجو أن يرى في شاعره صورة من مجده الثائر ، وأثراً من آثار عظمته وسلطانه . وأما ابن عبد الصمد فإنه مضى إلى قبر المعتمد بعد صلاة العيد مع ملأ من الناس يتوجعون له ويترحمون عليه ثم أنشد قصيدة طويلة أولها :

ملك الملوك أسامع فأناديا ... أم قد عدتك من السماع موادي
لما حللت سناك القصور فلم تكن ... فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا ... واتخذت قبرك موضع الإنشاد

وخر يبكي ، ويعفر وجهه في تراب قبره .

— ٤ —

أهم ما يتصف به عهد المعتمد الوضوح الذي يدل على وضوح

(١) مدينة تقع جنوبي مراكش أسر فيها ابن عباد وبها مات .

التجربة لدى الشاعر ، فلا تعثر فى شعره على غموض ولا التواء . ومما ساعد على هذا الوضوح الوحدة فى شعره ؛ فكل مقطوعة أو قصيدة تتحدث عن خاطر من نفس المعتمد ، وتتضافر الأبيات فى إيضاح هذا الخاطر وتسير فى اتساق ونظام .

وكثير من شعره فى عهد الإمارة والملك مقطوعات تدل على اكتمال يكفى هذا القدر فى تصويره ، مع قدرة المعتمد على الإطالة إذا أراد .

أما موسيقاه فمناسبة لهذه الانفعالات ، ولذا ترى أكثر أوزان الغزل مطربة سارة سريعة كقوله :

يابديع الحسن والإحسان ، يا بدر الدياجى
يا غزالا صاد منى بالطلا ليث الهياج
قد غنينا بسنا وجهك عن ضوء السراج

وترى شعره فى الأسر يلزم البحور الطويلة التى تدل على التأمل والأناة لا على الثورة والجموح . وليس فى شعره فى هذا العهد موسيقى تشعر بالسرعة إلا قطعته التى قالها فى أثر ثورة ابنه عبد الجبار ؛ فهى من المتقارب السريع الحركة ؛ لأنها تعبر عن انفعال سريع ، وحركة تضطرم فى صدره ، كما اختار البحور الطويلة لذلك فى رثائه .

وتشبيهات المعتمد مألوفة ، ولكن يزينها مايضفيه على الشعر من تناسب كقوله :

ياهلالا ، إذا بدا لى تجلت عن فؤادى دجنة الكربات

فأنت ترى التناسب بين الهلال والدجنة . وحينما يفصل التشبيه فى الغزل زيادة فى بث اللذة بتصوير من يحب حين يقول:

ياهلالا حسن خد ، يا رشا غنج لحظ ، يا قضيباً لين قد

ولا يتخذ المعتمد الغزل مقدمة لقصائد مدحه لأبيه ، كما كان يفعل الشعراء السابقون .

ويميل المعتمد إلى الجمال الطبيعى فى شعره ، فقل أن يلجأ إلى الصناعة . وإن كنت لا تعدم أن ترى هنا جناساً ، وهناك طباقاً وهنالك لفاً ونشراً ، وغيرها ، ولكنه مع ذلك يحسن الصوغ ، فلا تحس بنبوّ ولا قلق ، وإن كنت لا أنكر أثر الكلفة فى قوله ، يدعو بعض زملائه إلى الشراب :

أيها الصاحب الذى فارقت عيـ ـنى ونفسى منه السنا والسناء
نحن فى المجلس الذى يهب الرا حة والسمع الغنا والغناء
تتعاطى التى تنسيك فى اللذ ة والرقة الهوى والهواء
فأته تلف راحة ومحيـا قد أعد إلك الحيا والحياء

وزادت الصناعة من جمال قوله يتحدث عن قرية تنوح :

وناحت وباحت واستراحت بسرها
وما نطقت حرفاً يبوح به سر

ولم تنض الصناعة من جمال مقطوعته الغزلية التى جعل فى أول كل بيت منها حرفاً من حروف زوجه اعتماد .

والمعتمد دقيق ذو ذوق مرهف فى اختيار ألفاظه التى توحى إلى القارئ بخاطره . وخذ مثلا لذلك كلمة الأوار التى توحى إليك بلهيب النار وقد دل بها على نيران المعركة ، وكلمة شخيص المصرة وهى توحى بضآلة جسم ابنه أبى هاشم ، وهذا فى البيتين اللذين أوردناهما فى معركة الزلاقة ، وتأمل كلمة « مسيحا » فى قوله يسترضى أباه :

سخطك قد زادنى سقاما فابعث إلى الرضى مسيحا

لترى ما توحى به إلى نفسك من مقدرة المسيح على الإبراء ، وما فى الكلمة نفسها من دلالة على مسح آثار الداء ، وهو يصف الليل باعتكار ، ويضيف الوسواس للحلى ، ويصف النفس بالنرجس فى قوله :

فلاتتك بالنفس النرجسى ولاتتك بالملبس السجدى

وكل ذلك دليل الدقة فى اختيار الألفاظ .

وقوافى الشاعر محكمة فى أبياتها ، لا تشعر فيها بقلق ، ولا اضطراب ؛ بل هى مستقرة مطمئنة تشعرك بقدرة الشاعر على تذليلها ، إنا استثنينا كلمة كبد فى قوله :

أغائبة عنى وحاضرة معى لئن غبت عن عينى فإنك فى كبدى

فالمحبوب مكانه القلب لا الكبد .

وبعد فإن على شعر المعتمد بن عباد مسحة من الحسن تأسر النفس ، وتملك الحس ، لصدق العاطفة التى انبعث منها ، وجمال الأسلوب الذى صيغ فيه .

أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول